الحكاية الشعبية في حياة الطفل بين الإيجاب والسلب

أ.د. شافع بلعيد نصيرة *

جامعة تلمسان

belaidchafa@yahoo.fr

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022 / 10 / 14	2022 / 10 / 25	2022 / 10 / 31

مُلَخَّصُ البَحث

يسعى هذا المقال إلى دراسة العناصر الإيجابية والعناصر السلبية في الحكاية الشعبية الموجهة للطفل ليصل في الأخير إلى تحديد الشروط التي يجب توفرها في الحكاية الشعبية لتلعب دورا إيجابيا في حياة الطفل النفسية والتربوية.

الكلمات المفتاحية: حكاية – شعبية – طفل – إيجاب – سلب.

Abstract

This article aims to study the positive and negative elements in the folk tale directed to the child, in order to finally determine the conditions that must be met in the folk tale to play a positive role in the child's psychological and educational life.

Keywords: tale - folk - child - positive - negative.

*شافع بلعيد نصيرة - belaidchafa@yahoo.fr

تمهيد

لعلَّ الحكاية من الأشياء الأولى التي يتعرف إليها الإنسان في حياته ومنذ سنوات طفولته المبكرة بكل ما تحمله من إحساس بالسعادة والمتعة والفرح والحزن والخوف والرهبة، وربما من خلال الحكاية "تبدأ تصوراتنا الأولى عن العالم، عن الخير والشر، عن الحق والباطل وعبر التصورات والتخيلات التي تثيرها الحكاية لدى الإنسان يُدرك بصورة أفضل حقيقة الحياة، ويصبحُ مؤهلاً كي يختار غاياته ومطامحه الواقعية التي يصبو إليها.

تعريف الحكاية الشعبية

والحكاية الشعبية أحدوثة يتناقلها الناس شفوياً جيلاً بعد جيل. قبل أن تبدأ الشعوب بتدوينها خوفاً عليها من الضياع، وسيبقى وجودها الشفوي بشكل أو بآخر على ألسنة الناس ما استمر الناس، لأنها تمثلُ أرواح الشعوب التي أبدعتها، وتحملُ، السمات الجوهرية لوعيها وثقافاتها وتصوراتها العامة، كما تحملُ ثقة هذه الشعوب العميقة بانتصار قيم العدالة والخير.

يروي الحكاية. عادة. راوٍ حفظها عمن سبقه وقد يكون هذا الراوي جدة عجوزاً يتحلق أحفادها من حولها أو أماً تضطجعُ في ليلةٍ شتوية إلى جوار طفلها، أو رجلاً موهوباً في مجلس ما، ويستخدم هذا الراوي لغته الخاصة إلى حدٍ بعيد، دون التقيد بألفاظ الحكاية كما سمعها من قبل، مع الحفاظ على شخصياتها وحوادثها، ولكنه قد يتفنن بترتيب بعض الأحداث، من حيثُ التقدم والتأخير، وقد يختصرُ أشياء غير قليلة وفقاً لوضع المستمعين من حوله، مللاً أو شعوراً بالنعاس مثلاً، أو رغبة عارمة وشوقاً للتلقي... وما إلى ذلك.

ويترافق السرد. بطبيعة الحال. بإشارة تؤديها اليدان، وتعابيرَ متغيرةٍ ترتسم على الوجه، وتلوين صوتي يوافق المواقف والشخصيات وما إلى ذلك.1

وتخلو الحكاية من الاستدلال العقلي، "وتكتفي بالسرد الحكائي دون خوض في التفسيرات، ويقبلها السامعُ بعاطفته ووجدانه، ومن هنا يمكن أن يسهم تفعيلها بشكل إيجابي في تنمية مخيلة الطفل العربي وإثرائها، من خلال توظيفها فيما يوسع آفاقه التصويرية وثقافته الخيالية.

أنواعها

وتقسم الحكايات الشعبية. كما يرى أحد الباحثين الروس إلى مجموعات ثلاث:

حكايات على ألسنة الحيوانات، وأخرى تصور حياة الناس الواقعية، وثالثة هي حكايات الجن والساحرات، ويرى هذا الرأي أن أقدم الحكايات الشعبية وأكثرها عراقة هي تلك التي وردت على ألسنة الحيوانات، وفيها تؤدي دور البطولة مجموعة من وحوش الغابة وحيواناتها؛ فيتصف كلٌ من هذه الوحوش بصفاتٍ ثابتة تميزه من غيره: فالثعلب خبيث ومحتال، والديك مغرور وطائش، والذئب شرس وجشع، وأحياناً غبي وما إلى ذلك.

في حين تصنف الدكتورة نبيلة ابراهيم الحكايات في صنفين: حكايات خرافية وأخرى شعبية، وقد تمزج بينهما في حكايات خرافية شعبية وتكثر التصنيفاتُ والتقسيمات، حتى يرى د. أحمد زياد محبّك، أن تصنيف الحكايات عامة أمرٌ لا يخلو من تعسف.2

الحكاية الشعبية والطفل

انطلاقاً من أن الطفولة هي المرحلة الأهم في تكوين الشخصية الإنسانية، ومن أن فيها تتبلور السمات الأساسية لما ستكون عليه شخصية الطفل في قادم الأيام، يزداد الاهتمام بتربية الطفل تربية متكاملة تشمل النواحي

الوجدانية والعقلية والاجتماعية كافة. وهنا تبرزُ الحكاية كواحدة من أهم الأدوات التي تنهضُ بهذا الدور، ويزداد عددُ المربين والاختصاصيين النفسيين الذين يهتمون بفن الحكاية كوسيلة لتعليم الطفل، وتربية وتطوير مداركه في مختلف المراحل، ولاسيما مرحلة ما قبل المدرسة، ويستخدمها بعضهم بهدف تصحيح سلوك الطفل، وتفعيل نشاطه، وتأسيس مناخ نفسي طيب لديه.

ولكن هل كل الحكايات الشعبية تصلح لتربية الأطفال تربية نفسية وأخلاقية؟

يرفض بعض الدارسين والباحثين بشكل قاطع أن تستخدم الحكايات الخرافية والأساطير في الأدب المعد للأطفال، بل يعترضون على كل الأنماط الحكائية التي تستخدم الخيال الواسع والوسائل السحرية، وترتكز على ارتحال الأبطال إلى عالم المجهول، عالم الأرواح والشياطين والأشباح، دون الاهتمام بتفاوت هذه الأنماط في تصويرها لهذا العالم وعلاقته بالعالم الواقعي، ويمثل تولكين. أحد كتّاب الأطفال العالميين. هذه النظرة، حيث رأى أن الأساطير مادة سيّئة مليئة بالأحداث المفزعة، والشخصيات المرعبة التي تهدّد أمن الأطفال الداخلي، وتشعرهم بعدم الأمان في هذا العالم وتستند وجهة النظر هذه إلى القول: "بأن هذا العالم الخرافي أو الأسطوري من شأنه إبعاد الطفل عن معرفة ذاته، بتغريبه عن محيطه، وكيفية التعامل معه، وتقديم حلول جاهزة للمشكلات العويصة التي تتطلب نضالاً مريراً في بعض الأحيان، ويعدّ هذا الأمر من مكامن الخطورة في الأساطير وجلّ الحكايات الخرافية إن لم يكن كلها. إلى جانب ما تحمله من الإغراق في القدرية والقسمة والنصيب وأفعال الزمن ومكائده والهروب من المسؤولية، ونزعة التبرير، ورد الأمور إلى إرادات مستترة، والاندفاع والطيش عندما يكون التروّي والحذر ضروريين، والجبن والتواكل عندما تدقّ ساعة الجد... والإيمان بالخوارق والإيمان بالمشعوذين والدجّالين...الخ3

ويصب في هذا التيّار رأي الدكتور هادي نعمان الهيتي الذي لا يرى في الأساطير سوى "أكذوبة كبيرة" بعد أن كانت في الأمس البعيد عقيدة راسخة، وهي بهذا المعنى مادة لا تناسب الأطفال.

كما يستند هذا الرأي عند بعض الدارسين العرب إلى امتلاء حكاياتنا الشعبية بنماذج وصور نمطيّة سلبية قد تفسد الطفل، منها مثلاً صورة المرأة. الخالة (زوجة الأب) القاسية الشريرة، التي لا تتورع عن قتل ابن زوجها لأتفه الأسباب، مما يخلق كرها وعداء مسبقين لدى الطفل تجاه كل خالة، ولدى الخالة نفسها تجاه أبناء وبنات زوجها، بالإضافة مثلاً إلى صورة الشطّار واللصوص المحبّبة ف (علي بابا) مثلاً ليس إلا سارقاً، حتى ولو كان يسرق مغارة اللصوص، فهل سرقة السارق عمل مباح ومقبول أخلاقياً واجتماعياً.

ويبالغ هؤلاء انطلاقاً مما سبق، فيرون أن من غير المقبول تقديم الحكايات الخرافية للأطفال حتى ولا معدّلة أو محوّرة أو محدّثة "فالأميرة الساحرة، والجان، والخاتم السحري"، حكايات تجاوزتها الحياة الحديثة وطواها الزمن، وأدخلت الحياة العصرية أدواتها التي تتناسب مع طبيعتها، وارتكزت على العلم ووسائله، فبدل (بساط الريح) أصبحت مركبة الفضاء، وبدل أن يكلّم الطفل (الخاتم السحري)، صار يكلّم العقل الإلكتروني وهكذا)

- ويرى فريق آخر من الباحثين أنه لا يوجد تعارض بين الأسطورة والخرافة من جهة والعلم من جهة أخرى لأن لكل منهما حقله الخاص به، والمجال المحدّد لعمله، وكل منهما يشبع حاجات ورغبات مختلفة في النفس الإنسانية، وعليه نسمع أصوات بعض علماء التربية تتعالى مبدّدة الخوف من استخدام الأسطورة والحكاية الخرافية في الأدب المكتوب للطفل؛ فيقول و.د.وول في كتابه "تربية الطفل البنّاءة". وقد نشرته منظّمة اليونسكو لأهميته: "يتصل اهتمام الطفل بالقصص الخرافية، بحاجته إلى إعطاء شكل درامي للمشكلات التي تعترضه، ولإبداعات خياله،

فالعديد من عناصر الفلكلور (الفن الشعبي)، ومن القصص الخرافية بما في ذلك المشاهد العنيفة، تتطابق مع عالم الطفل الباطني، ويمكن لهذا الأخير أن يتقمص بسهولة مختلف مظاهر الحكاية"

وهو بذلك يرى في استخدام الأسطورة والخرافة في أدب الأطفال مسألة صحّية ويحثّ عليه ربّما بسبب ما تمتلكانه من غرائبية الأحداث، والإدهاش، وقدرات الأبطال الخارقة على تحقيق المعجزات وتجاوز الصعاب والعقبات، ولحركة الزمن فيهما، مما يثري مخيّلة الطفل وينميها.4

- وبين هذا وذاك يقف فريق آخر من الباحثين موقفا وسطا حيث يعترف أن للأساطير والحكايات الشعبية المختلفة بعداً أساسياً في الحضارة وأن توظيفها في تربية الطفل عقلياً ووجدانياً أمر لا يخفى على أحد، وبخاصة تلك الحكايات التي تتوجه في الأساس إلى تربية الطفل، وتنمية مخيّلته، وقدراته الذهنية والوجدانية، فهي تقدّم له أنموذجات من السلوك الإنساني الجيّد، تكون أداة للمعرفة في تشكيل تصوّره عن الكون، والمحيط الاجتماعي، ولابأس من أن تمرّ تلك الحكايات الأسطورية والشعبية بمقاييس العصر ومعاييره قبل أن تقدّم للطفل، بحيث يتم تنقيتها من التصورات المرعبة والقيم الضارة والشوائب المفسدة ربما لأن تلك الحكايات الشعبية أو لنقل معظمها لم توضع أساساً للطفل، ولا تلبّي احتياجاته التربوية والتعليمية، فمن الضروري إذاً حين نتعامل مع حكاية شعبيّة تراثية أو غيرها أن نعمل على صوغها بصورة تخصّ الطفل، بطريقة نجنّبه فيها ما لا يتلاءم مع مستواه العقلي والنفسي والاجتماعي، وبشكل يجعلها لا تشذ عن مفاهيم التربية الحديثة.

.الحكاية الشعبيّة ذات القيمة التربوية

أدّت الحكايات الشعبيّة عموماً دور المربّي والمعلّم والمعالج النفسي الخاص، ولئن استطاعت النماذج الباهرة منها أن تحافظ على قيمتها من الزمن، إلا أن الكثير منها تقادم من حيث الموضوع والمحتوى والأفكار، بل القيمة التربوية، وراحت أمور الحياة الجديدة ومشكلاتها تتطلّب ولادة حكايات جديدة، وليس من قبيل المصادفة .والحال هذه .أن يظهر الكثير من الحكايات القديمة بحلل معاصرة، تلائم الحالة الجديدة.

إن دراسة تاريخ الحكاية الشعبيّة، كاتجاه في دراسة الفلكلور بدأت تحضر بقوة في أعمال الكثير من الباحثين المتخصصين، وغير المتخصصين لكّن ما يعني المربّي والاختصاصي النفسي في أعمال هؤلاء هو التأسيس لفن الحكاية، ومكانة الحكاية في حياة الشعب، وتحظى بأهمية خاصة في أعمال هؤلاء مسألة إظهار وكشف الطاقات التربوية الكامنة في الحكايات، والوظائف التعليميّة والتطويرية، والتربويّة والبيئيّة، والإمتاعيّة لهذه الحكايات.

شروط الحكاية الشعبية الموجهة للطفل

إن القيمة التربوية للحكاية الشعبية مشروطة بتوفّر عوامل عدّة فيها، أهمها:

.إمكانية وصولها للطفل، خفّتها، لغة سردها البسيطة.

.موضوعها القريب من عالم الطفل، ووجود أنموذج البطل القادر دائماً على الانتصار.

.الشمول، والاكتمال في الحالة التي ترسمها الحكاية.

.انتصار الخير على الشر، ما يجعل الطفل يشعر بأنه محمي وفي أمان.

إن أبطال الحكايات الشعبيّة ذات الطابع الإنساني، هم شخصيّات فريدة، محبوبة، هم أقوياء، وشجعان ومقدامين، ولطفاء، يخفّون دائماً لتقديم المساعدة في المواقف الصّعبة، وينصرون الضعفاء ويهزمون الأعداء، وهم في الحكايات السحريّة أبطال لا تحرقهم نار، ولا تغرقهم مياه، تساعدهم في ذلك وسائل كثيرة، منها بساط

الريح، وماء الحياة، ومردة يخرجون من مصباح علاء الدين، أو من قمقم أو خاتم وما إلى ذلك. وبالتالي فهؤلاء الأبطال يحرّضون لدى الطفل الرّغبة في مساندتهم، والتحلّي بصفاتهم ومزاياهم، فينبذ الكسل والخمول ويبدأ بالإيمان بالمعجزات وقوّة الإرادة، وأنّ لا شيء مستحيل، ويشعر أن إمكاناته غير محدودة، ويتحرّر من المخاوف: (أنا أستطيع.. أنا لا أخاف.. أنا قادر...)

يكتسب الطفل من مثل هذه الحكايات قيماً جماليّة عديدة "الجمال، البطولة، التفوّق، السعادة..."

وفي الحكايات الساخرة والواقعية يتعرف الطفل أيضاً إلى مقولات جمالية مختلفة "كالفكاهة، والبطولة، والنبل والسفالة..."

من خلال الحكايات يبدأ الأطفال بالإحساس بالزمان والمكان واستيعابهما: في البداية فنياً، ونفسياً، ثم فيزيائياً، فالإحساسُ بالزمن يتم التعبير عنه من خلال عبارات اعتيادية في الحكاية مثل: في قديم الزمان، مرّ وقت طويل، انسابت مياهٌ كثيرة، استغرق وقتاً طويلاً، أو قصيراً الخ... وكلما كان الطفل أصغر سناً، انساب الوقت بالنسبة له أكثر بطئاً، إنه يعيشُ دون زمن، مثله مثل الحكاية نفسها.5

والمكان أيضاً غير مرئي: جبال، غابات، سهول، سماوات، مياه، ويتم التعبير عن الإحساس بالمكان في الحكاية من خلال عبارات مثل: في إحدى الممالك، في إحدى الدول (دون تحديد، وبإطلاق)، وعبارات مثل: في السهول، في الجبال، في المروج الخضراء (فضاءات طبيعية)، في القصر، في المغارة، في الخان... الخ (فضاءات واقعية ضيقة...)

إن الدور الذي تؤديه الحكاية في حياة الطفل كبير جداً، فهي تنمي قدرات الطفل على الحكي، وتركيز الانتباه، وتقوي مهاراته اللغوية إن تم القص بالعربية الفصحى البسيطة، وهي تساعده على الربط بين الواقع والخيال وتنمي الحوار بين الطفل وأبويه وتنمي لديه مهارة الاستماع وآدابه من مثل عدم المقاطعة، والإجابة بشكل مرتب وبعد طرح سؤال محدد، وهي تعمل أيضاً على تعميق الرابط بين الأشقاء في الأسرة، لاشتراكهم في سماع الحكايات نفسها في الآن نفسه ومناقشتها، أو إعادة سردها فيما بينهم.

كما أن هذه الفوائد تصبح أكبر حين تقوم الأم نفسها بعملية القص، عندها تصبح لحظة السرد هي لحظة تفاعل ما بين الأم وطفلها، لحظة اندماج فيما بينهما تختفي أثناءها عصبية الأم وتتوقف أوامرها ونواهيها وإرشاداتها، وكذلك يزول تمرّد الابن، لتحلّ محل كل ذلك روح الود والصفاء والحميمية، وتنتهي بنوم الصغير هانئاً سعيداً، ولاسيما حين تحسن الأم اختيار الحكاية، التي تبعث الاطمئنان والثقة في النفس، وتبتعد عن الخيالات المفزعة والموضوعات المرعبة.

خاتمة

الحكايات الشعبية تهتم في كلّ مجتمعات العالم بالطفل اهتماما خاصا ، لأنّ الطفل هو بداية الحياة ، و هو في ميلاده و نموّه رمز حي متجدد بتجدد هذه الحياة لذلك يقدم له التراث الشعبي الحكايات التي تساعده في التّغلّب على ما يعترضه من صعوبات في حياته العائلية و الاجتماعية ، فحكاية " الشاطر حسن " تنقل إلى الطفل مثل المجتمع كمحاربة الظلم و الطموح إلى الثروة و العلم و الجاه ، و تمتلك الحكاية الشعبية ما يساعدها على القيام بالتربية النفسية بنجاح، لأنها تحتوي على معان مختلفة و الطفل يدرك المدلول الذي يؤمّن له شيئا في تلك اللحظة و عندما يكبر يكتشف مظاهر أخرى للحكاية ، لأن نفس الحكاية تأخذ أكثر من معنى ، و لأن الطفل قدرته على الادراك قد نضجت ، لذلك نجد الطفل يتعلّق أحيانا بقصة معينة تعلّقا شديدا و يدلّ ذلك على أنّ الحكاية تؤمن له راحة نفسية و تساعد في نموه ، فلا ينبغي أن يضجر الأهل من إلحاحه على سماعها مرارا و تكرارا ، لأن الطفل يفهم الحكاية كل مرة بطريقة أفضل ، لذلك كلّه يجب وضع الحكايات الشعبية في الغربال واختيار ما يناسب الطفل منها ، فيحقّق له تربية نفسية وخلقية صحيحة.

إحالات البحث

1- محمد شنوفي، القيم في قصص الأطفال، مجلة اللغة العربية، جامعة الجزائر، العدد 08، ص 206

2- أحمد نجيب، فنّ الكتابة للأطفال، دار اقرأ، بيروت، 126،1983

3- عبد القادر عميش، قصة الطفل في الجزائر، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012،ص 203

4- إيمان البقاعي، المتقن في أدب الأطفال والشباب، دار الراتب الجامعية، بيروت، ص 11

5- إسماعيل سعدي، الحكايات الشعبية للأطفال بين الحفاظ على الموروث ونمطية ترسيخ القيم، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد 01، 2022، ص 204.